

مُقَوِّمات بناء المجتمع المسلم - قراءة في فكر الماتريدي -

Elements of the building of Muslim society an overview of Elmutridi thinking

د. خليل قاضي*

جامعة الجزائر 1، كلية العلوم الإسلامية، k.kaddi@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: 2021/06/04 تاريخ القبول: 2021/06/08 تاريخ النشر: 2021/07/31

الملخص:

للمجتمع المسلم مقوّمات يُبنى عليها في التصوّر والعقيدة؛ وفي الفكر والمعرفة؛ وفي الإيمان والتزكية؛ وفي السّنن الحركية التي يسيّر عليها ويستمدّ مرجعيته فيها جميعا من القرآن الكريم في رؤيته الكلية لأبعاد الوجود الإنساني.

وتوخّينا في هذا المقال بيان منظور الماتريدي لهذه المقوّمات من خلال تفسيره للقرآن الكريم وأعماله الأخرى التي سبقت زمانها في إبراز البُعد الوظيفي المتكامل للدين في بناء المجتمع المسلم.

وتبيّن لنا من خلال البحث أن الماتريدي قد أحدث نقلة نوعية في مسار الدراسات التي تُعنى بالأبعاد الوظيفية للدين؛ إذ جعل له الدور المفصليّ في وحدة المجتمع؛ حاشدا لذلك ترسانة من الأدلّة النقليّة والعقليّة، بل بدونه لا يمكن للعادات الجاهلية أن تزولَ تحت أيّ محرّك آخر، وليس هذا فقط؛ فحتى إدارة شؤون المجتمع في تفاصيلها تحدّدها مفاهيم وقيم منهجية متكاملة تشمل أبعاد الوجود الإنساني في توجيه بوصلة المجتمع في الحياة فكرا وحركة؛ ولا يكون ذلك إلا بتحكيم رسالة السماء.

ويركّز أخيرا على المقوّم السنني الحركي الذي ينزل الأبعاد العقدية والأخلاقية والتشريعية على أرض الواقع فيجعل في المجتمع قابليةً للنهوض النوعي والتمكين والزيادة.

الكلمات المفتاحية: مقوّمات بناء المجتمع المسلم؛ فكر؛ الماتريدي؛ الأبعاد الوظيفية؛ السّنن الحركية .

* المؤلف المرسل

Les constitutifs de construction d'une société musulmane - lecture dans la pensée d'Almaturidi-

Résumé :

La société musulmane a des constitutifs dans le concept, foi, pensée, savoir, spiritualité et dans les lois divines qui met le coran comme référence première dans la vision générale de toute dimension de l'être humain.

On a essayé dans cet article d'éclaircir la vision d'Almaturidi pour ces constitutifs d'après son interprétation de saint coran et ses autres œuvres qui sont première à montrer la dimension fonctionnelle de la religion dans la construction de la société musulmane.

On a déduit après cette recherche qu'Almaturidi est l'un des premiers

Qui ont travaillé sur les dimensions fonctionnelles de la religion dans le but de l'unité de la société par des arguments rationnels et conductibles, et sans la religion y'a rien qui peut battre les coutumes de djahilia, et ce n'est pas que cela mais même la direction des détails de la société c'est par les concepts et valeurs de la religion qui englobent toute dimension de l'être humain.

Et Almaturidi insiste sur le constitutif de loi divine avec tout ses dimension de croyance, moeurs, législation dans la renaissance qualitative de la société musulmane.

Mots-clés : Les constitutifs de construction d'une société musulmane; Almaturidi; La pensée; les dimensions fonctionnelles; les lois divines .

مقدمة:

يُعدّ المجتمع مدخلا أساسيا لتحقيق البناء الحضاري الراشد؛ بوصفه المكلف بتمثّل فلسفته للحياة وتفعيلها في أرض الواقع وفق منهجية شاملة ومتكاملة قصدا إلى تأسيس أنموذج نهضوي نوعي يستمدّ مضامينه ومناهجه من المرجعية العليا للمجتمع، ويلبي تطلّعاته ومقاصده في الحياة. ويعتبر القرآن الكريم المصدر الأساس الأول لهذه المرجعية، لما يتضمنه من رؤية كلية متّسقة لأبعاد الوجود الإنساني - مبدأ ومنهج ومقصدا ونظرا وتدبرا-؛ بوصلة توجّه المجتمع في الحياة فكرا وحركة. وبهذا يشكل القرآن الكريم معينا لا ينضب تُستلهم منه تجربة بناء المجتمع منطلقا ومنهجيا ومقصدا عبر الزمان والمكان.

مَقَوِّمَاتُ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ - قِرَاءَةٌ فِي فِكْرِ الْمَاتَرِيدِيِّ -

وفي هذا المقال أُسعى في ضوء ما سلف إلى بيان منظور الماتريدي لمَقَوِّمَاتِ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ مِنْ خِلَالِ تَفْسِيرِهِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأَثَارِهِ الْمَكْتُوبَةِ، مُسْتَحْضِرًا أَصَالَةَ الْمَعَالِمِ الْأَسَاسِيَّةِ لِلْمَنْظُورِ الْقُرْآنِيِّ فِي بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ.

وَمِنْ هَذَا الْمَنْطَلِقِ حَاولْنَا الْإِجَابَةَ عَنِ التَّسْأُولَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ الْآتِيَةِ:

- مَا هُوَ مَنْظُورُ الْمَاتَرِيدِيِّ لِلْمُجْتَمَعِ؟

- وَمَا مَوْقِعُ الدِّينِ فِي تَشَكُّلِ لَحْمَةِ الْمُجْتَمَعِ مِنْ مَنْظُورِ الْمَاتَرِيدِيِّ؟

- وَمَا هِيَ مَقَوِّمَاتُ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ مِنْ مَنْظُورِهِ؟

- وَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَشَكُّلَ الْأَقْوَالُ الْمُبْثُوثَةُ وَالْمُنْتَثِرَةُ فِي مَجْمُوعِ كُتُبِ الْمَاتَرِيدِيِّ رُؤْيًى نَسَقِيَّةً وَوُضُوفِيَّةً

مُتَكَامِلَةً لِمَسْلُوكِ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ؟

وَسَعِيًا لِتَحْقِيقِ الْأَهْدَافِ الْمَتَوَخَّاةِ، وَلِلْإِجَابَةِ عَنِ التَّسْأُولَاتِ السَّابِقَةِ وَظَّنَّا خُطَّةً تَضَمَّنَتْ

الْعُنَاوَرِ الْمُنْهَجِيَّةِ الْآتِيَةِ:

المطلب الأول: رُؤْيَا الْمَاتَرِيدِيِّ لِلْمُجْتَمَعِ.

المطلب الثاني: مَوْقِعُ الدِّينِ فِي عَمَلِيَّةِ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ عِنْدَ الْمَاتَرِيدِيِّ.

المطلب الثالث: مَقَوِّمَاتُ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ عِنْدَ الْمَاتَرِيدِيِّ: الْمُمَثِّلَةُ فِي: - الْمَقَوِّمِ الْعَقْدِيِّ التَّصَوُّرِيِّ. - الْمَقَوِّمِ

الْإِيمَانِيِّ التَّزَكُّوِيِّ. - الْمَقَوِّمِ الْفِكْرِيِّ الْمَعْرِفِيِّ. الْمَقَوِّمِ السَّنَنِ الْحَرْكِيِّ.

خَاتَمَةٌ: وَتَتَضَمَّنُ أَهَمَّ النَّتَائِجِ.

تمهيد: منظور الماتريدي للمجتمع:

يُحسّن بنا أولاً تعريف المجتمع لغة واصطلاحاً وفق البيان الآتي:

تعريف المجتمع لغة: مشتقّ من الفعل "اجتمعَ ضدّ تفرّق"⁽¹⁾، والمجتمع "موضع الاجتماع أو الجماعة من الناس"⁽²⁾.

المجتمع اصطلاحاً: عُرّف المجتمع بعدّة تعريفات حسب المنطلقات الفكرية والمعرفية لأصحابها:

عُرّف بأنه: "كلّ مجموعة أفراد تربطهم رابطة ما معروفة لديهم، ولها أثر دائم أو مؤقت في حياتهم وفي علاقاتهم مع بعض"⁽³⁾.

عُرّف بأنه: "مجموعة منظمة من الناس يعيشون سوياً تربط أفرادهم مجموعة مشتركة من القيم والأهداف والصلات والمصالح المشتركة"⁽⁴⁾.

عُرّف كذلك المجتمع المنتسب للإسلام بأنه "الملتزم بتعاليم الله وشرعه؛ والمطبّق لحدوده والخاضع لأوامره والمجتنب لنواهيه"⁽⁵⁾.

ويمكن القول ممّا سلف ذكره أنّ المجتمع هو مجموعة من الناس تعيش معاً في شكل مُنظّم وفي موقع مُعيّن، تتربط فيما بينها بعلاقات ثقافية واجتماعية، ويسعى كلّ واحد منهم لتحقيق المصالح والاحتياجات التي تحمّل معاني التعايش السلمي بين أفراد المجتمع، والمهم في المجتمع أنّ أفرادَه يتشاركون هوماً أو اهتمامات مُشتركة تعمل على تطوير ثقافة ووعي مُشترك يطبع المجتمع وأفرادَه بصفات مُشتركة تُشكّل شخصيّة هذا المجتمع وهويته"⁽⁶⁾.

المطلب الأول: منظور الماتريدي للمجتمع:

يتوجّب الإشارة إلى أنّ "المجتمع" مصطلح مستجدّ لم يكن متداولاً عند المتقدمين، فنجد أن الإمام الماتريدي وظّف لفظ الجماعة في إشارة إلى تكتّل جماعة من الناس، كما جعل هذا اللفظ مرادفاً للأمة، ففي سياق تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [92]. "أو أن يكون الأمة ما يؤم إليها ويُقصد؛ لأنّ الأمة هي الجماعة، وهي المقصودة"⁽⁷⁾.

وبصرف النظر عن الجانب الإجرائي من التعريفات السابقة المذكورة آنفاً للمجتمع، نجد بأنها ركزت على الروابط الجامعة التي توحد المجتمع في المنطلق والمقصد، والمتتمثلة في الدين والهوية والقيم والثقافة.

وهي الروابط نفسها التي حضرت عند الماتريدي مع فوارق طفيفة، حيث ركز في إطار توظيفه للفظ الجماعة وتحديد دلالاته على الدين كمقوم لوحدة الجماعة أو الأمة، وهذا ما يتضح في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء، 92]، حيث قال: "إن هذه ملتكم وشريعتكم ومذاهبكم ملّة واحدة وشريعة واحدة، يعني: شريعة الإسلام، وملّة واحدة ليست بمفترقة... وجائز أن يكون إخباراً عن هذه الأمة على دين واحد وملّة واحدة، ليسوا بمختلفين ولا بمفترقين، كسائر الأمم الخالية⁽⁸⁾".

وحضر التركيز نفسه على دور الدين في تشكيل لُحمة الجماعة في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران، 103]، مستدلاً بتفسير ابن عباسٍ رضي الله عنه للآية قائلاً: "حبل الله: الجماعة، وإنما هلكت الأمم الخالية بتفرّقها، أمر بالكون مع الجماعة، ونهي عن التفرّق؛ لأنّ أهل الإسلام هم الجماعة؛ ألا ترى أنه قال في آية أخرى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام، 153]، وصف أهل دين الإسلام بالجماعة، وأهل أديان غيرها بالتفرّق⁽⁹⁾ كما استدلّ بمجموعة من الآثار منها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ، فَقَدْ خَلَعَ رِيقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ"⁽¹⁰⁾ يعني: حبل الإسلام.

وروي عنه - أيضاً - قوله: "إن الشيطانَ ذئب الإنسان، كذئب الغنم، يأخذُ الشاذّة والقاصية والنّاحية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامة وهذا المسجد⁽¹¹⁾".

حاصل القول أن الجماعة عند الماتريدي هي تكتل أفراد من الأناسي على أساس روابط جامعة تحدّد خطّ سيرها ومقصدتها.

المطلب الثاني: موقع الدين في تأسيس المجتمع المسلم:

شكّل الدين منذ دخوله ميدان التأثير مقوّمًا أساسيًا، ومركزًا متينًا لوحدة المجتمع، فأحدث نقلات نوعية في المجتمعات التي حلّ بها، حيث قوّض أولاً: أسس البناء الاجتماعي الجاهلي الذي كان قوامه العصبية للقرابة، وتعزيز تقسيمه الطبقي والقبلي، المشكّل من طبقتي الأشراف، والعبيد، والتمييز بين الناس على أساس اللون أو المال أو الجنس.

وأقام الدين محلّ هذه العادات البائدة مقاييس جديدة تقوم على أسس معنوية سامية؛ هي التقوى والفضيلة والإخاء الإنساني، والمساواة بين الناس في حق الحياة وحق الكرامة، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات، 13].

كما نقل الأفراد من حالة التناقض والصراع إلى حالة التآلف والتعاون والتلاحم، فشكّلوا أمة واحدة، تبوّأت منزلة عليا، ويضاف إلى ذلك قيامه بتغيير جذري للعادات والتقاليد الجاهلية البالية التي قوّضت تماسك المجتمع الجاهلي، وأسّاءت لكرامة الإنسان، وسبّبت له العنت والمشقة، فحلّت محلّها قيم سلوكية فطرية ساهمت في تمتين نسيج المجتمع، والإعلاء من قيمة الإنسان.

نذكر من الصور المشرقة أيضا لهذا التحوّل الجذري والنّوعي تلبية المهاجرين لأمر النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة زاهدين في متاع الدنيا من المال والجاه والولد والأهل والعشيرة، إيمانًا وبقينا بوعده الله تعالى بالفلاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة، 20].

يعلق الماتريدي في تفسيره للآية بقوله: "أي: صدقوا رسول الله في جميع ما يخبر عن الله أنه صادق، وفي جميع ما دعا إليه وأمرهم به ونهاهم عنه أنه محقّ... فارقوا آباءهم وإخوانهم وعشيرتهم وأموالهم ومنازلهم وبلداتهم، وهجروا جميع ما تحبه أنفسهم وتحوّاه، وتميل إليه القلوب...، وفارقوا ذلك الكل؛ إشفاقًا على دينهم؛ ليسلم ما لو أعطوا قبل الإسلام الدنيا وما فيها مما أوعدوا بكلّ وعيد وخوف، ما فارقوا آباءهم وإخوانهم وعشائرتهم وأولادهم الذين ذكروا في الآية، ثم إذا أسلموا فارقوهم

وأجابوا رسول الله ﷺ في ذلك ابتغاء مرضاة الله، وطلباً لرضوانه؛ ليعلم عظيم قدر الدين في قلوبهم، وخطير منزلته عندهم⁽¹²⁾ .

وعلى هذا الأساس شكّل الباعث العقدي-بوصفه جوهر الدين ولبّه- أقوى ضمانات تماسك المجتمع المسلم وتلاحمه، ومن أمتن أسباب وحدته ومناعته؛ لما له من دور فعال في صهر الشعوب، والقبائل، والأعراق، واللغات على أساس ترسيخ الروح الإيمانية، وفي رحاب المجتمع التوحيدي الواحد على أساس الأخوة الإيمانية، التي تثمر أداءً اجتماعياً نوعياً، يقوم على أساس التعاون، والتناصح والتكافل، لا على التنافس المذموم، والتجاذب، والتنافر، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة، 2]

وفي هذا الإطار شدّد "الماتريدي" على الدور المفصلي للدين في وحدة المجتمع، ولزومه في حياة البشر، فيرى أنه لا بد للخلق من دين يلزمهم الاجتماع عليه وأصل يلزمهم الفرع إليه، ودّل على ضرورة الدين بالدليل السمعي والعقلي، وهو لا يقصد بالسمع الدليل النقلي الشرعي، بل هو ما هو معروف بين الناس عرفاً وعادة. فالناس لا بدّ لهم من مذهب يجتمعون عليه، ولا يخلو بشر من انتحال مذهب يعتمد عليه ويدعو غيره إليه،... وعلى ذلك جرّت سياسة ملوك الأرض من سيرة كل منهم ما رامو تسوية أمورهم عليه، وتألّف ما بين قلوب رعيّتهم به⁽¹³⁾.

والدليل العقلي على ضرورة الدين هو كون العالم مجعولاً للبقاء لا للفناء، وإلا كان خلقاً عبثاً، والإنسان الذي سمّته الحكماء "العالم الصغير" لو ترك على ما فيه من أهواء ونوازع لأدّى إلى التنازع في تجاذب المنافع، فيعقب ذلك التباغض ثم التقاتل، ولأدّى ذلك إلى الفناء، ولو لم يرد تكوينهم سوى فنائهم، لم يحتمل إنشاء ما به بقاؤهم، وإذا ثبت ذلك لا بدّ من أصل يؤلّف بينهم عن التنازع الذي فيه هلاكهم، أي لا بدّ من أن يكون للناس دينٌ يجتمعون عليه، ليكون به بقاؤهم ومعاشهم، والله يعلم ما به بقاؤهم فلا بدّ من أن يرسل لهم مَنْ يرشدُهم إلى ما به معاشهم وبقاؤهم⁽¹⁴⁾.

يتبيّن لنا ممّا سلف أن شهادة السمع أو الشرع والعقل يحكّمان بضرورة الرسالات السماوية، بل إنّ المجتمع برأيه لا يمكنه الاستقامة إلا عن طريق الوحي الإلهي وما يتضمنه من شريعة تنظّم حياة الناس وتضع لهم أسس السلوك وقواعد النظام⁽¹⁵⁾.

وتمثل عنصر التميّز في منظور الماتريدي للدين تركيزه على بُعد الوظيفة؛ عبر كشف تجلياته في الحياة ودوره المركزي في تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع.

ويتجلى هذا في سياق إشارته إلى وظيفة الرسل الاجتماعية، مثبتا افتقار المجتمع إلى تعاليم وتشريعات الرسل في القيام بتنظيم العلاقات الاجتماعية وشؤون حياة المجتمع على أسس صحيحة، حيث قاس "الماتريدي" حاجة الناس إلى الرسل بحاجتهم في أمر الدنيا إلى معلّم ومرشد، وفي هذا يقول: "وليس في بداية العقول معرفة وجوه الزراعة وما يصلح للأغذية وأنواع الحرف والتجارات وتفرّق البلدان وتعرف الألسن وسبيل معرفة ذلك هو التعلّم وليس العقل، وهذا يلزم القول بمن يطلعه الله على كل جوهر منها ليحيا بما يكفلون أبدانهم وقيمون دينهم، وسبيل ذلك ليس بداية العقول وإنما هو التعليم على أيدي الأنبياء الذين أرسلهم الله للتعليم والإرشاد في أمور الدنيا والدين".⁽¹⁶⁾

وعليه فليست مهمة الرسول روحية فحسب؛ بل هي أيضا دنيوية؛ مما يؤكّد الدور المفصلي للدين في إدارة شؤون حياة المجتمع وفقا لمبادئه وقيمه وتعاليمه في إطار من الوفاق والانسجام في شتى أنساق علاقات المجتمع.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى تبوّء العقيدة مكانة مفصلية بارزة في الضمير الجمعي للأمم، لتشكّل الضابط، والنسق الناظم الذي يحدّد منطلقات، ومناهج، وتوجّهات المجتمع، فتنبثق عن العقيدة منظومة أفكاره، ومفاهيمه، وتتأسّس على قاعدتها منهجيته وشريعته، وتشكّل معالم ثقافته وشبكته علاقاته، ونظمه المختلفة، لتكوّن كل هذه العناصر ركائز بناء الصرح الحضاري.

وفي إطار مركزية ومحورية الدين شكّل القرآن الكريم القاعدة الأساسية والمصدر الأساس الأوّل لبناء المجتمع في مختلف الأبعاد، لما يتضمنه من رؤية كليّة متّسقة لأبعاد الوجود الإنساني - مبدأ ومنهجاً ومقصداً - جامعة بين النظر والتدبير، فعُدّت بوصلة توجّه المجتمع في الحياة فكراً وحركة.

المطلب الثالث: مقومات بناء المجتمع من منظور الماتريدي :

يمكنُ تحديدها في العناصر الآتية:

الفرع الأول: المقوم العقدي التصوري:

هَيَأَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لِلْمَجْتَمَعِ أَرْضِيَّةً فِكْرِيَّةً تَضَمَّنَتْ رُؤْيَا كَلِيَّةً مُتَّسِقَةً لِلْوُجُودِ، تَشَكَّلَ بِمَجْمُوعِهَا عَامِلَ تَحْرِيكِكَ وَدَفَعَ لَهُ نَحْوَ تَفْعِيلِ رُؤْيَا لِحَيَاةٍ فِي أَرْضِ الْوَاقِعِ .

وَيَعَدُّ التَّوْحِيدَ^(١٧) حَجَرَ الزَاوِيَةِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ يُمَثِّلُ جَوْهَرَ الْمَرْجِعِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْأَصِيلَةَ، وَرُوحَ الدِّينِ كُلِّهِ وَنَوَاتِهِ، لَمَّا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ رُؤْيَا كَلِيَّةٍ مُطْلَقَةٍ وَتَّسِقَةٍ لِلْوُجُودِ كُلِّهِ، مَبْدِئًا، وَمَاهِيَّةً، وَمَقْصِدًا، وَوَسَائِلَ، مَبْنَاهَا إِفْرَادُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْوَحْدَانِيَّةِ فِي الذَّاتِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ، وَالْعِبَادَةِ، وَالْحُكْمِ وَالتَّشْرِيعِ.

فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ - وَفَقَ هَذِهِ الرُّؤْيَا - مَبْدَأُ كُلِّ شَيْءٍ، وَمُنْتَهَى كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَذَا "فُوجُوهُهُ تَعَالَى وَإِرَادَتُهُ وَأَفْعَالُهُ هِيَ الْأَسُسُ الْأُولَى الَّتِي عَلَيْهَا يَقُومُ بِنَاءُ كُلِّ الْكَائِنَاتِ، وَكُلِّ الْمَعَارِفِ، وَكُلِّ أَنْظُمَتِهَا، سِوَا أَنْ كَانَ مَوْضُوعَ الْمَعْرِفَةِ هُوَ عَالَمُ الذَّرَّةِ الصَّغِيرَةِ، أَمْ النُّجُومِ الْكَبِيرَةِ، أَمْ أَعْمَاقِ النَّفْسِ، أَمْ سُلُوكِ الْمَجْتَمَعِ، أَمْ مَسِيرَةِ التَّارِيخِ."^(١٧)

وَرَسَمَتْ هَذِهِ الرُّؤْيَا الطَّرِيقَ لِكُلِّ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ، مَلَبِّيَةً لَتَطَلُّعَاتِ الْإِنْسَانِ الرُّوحِيَّةِ وَرَغْبَاتِهِ الْمَادِيَّةِ بِشَكْلِ مُتَوَازِنٍ وَدَقِيقٍ، وَمُحَقِّقَةً لِكِرَامَتِهِ وَمَكُونَةٍ لِشَخْصِيَّتِهِ، فِي انْسِجَامٍ مَعَ الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَهُوَ مَا يَثْمُرُ نِظَامًا مُتَكَامِلًا لِلْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ بِمُخْتَلَفِ أَطْوَارِهَا.

وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ يَسْتَمُدُّ كُلَّ الْخَلْقِ وَجُودَهُ، وَمَاهِيَّتُهُ مِنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْعَظْمَى، إِنْشَاءً، وَتَدْبِيرًا وَعِنَايَةً، وَإِفْنَاءً، وَحِسَابًا، وَجَزَاءً. وَبِهَذِهِ الرُّؤْيَا الْكَلِيَّةِ الْمُتَّسِقَةِ يَشَكُلُ التَّوْحِيدُ "سَقْفَ الْمُنْطَقِ الْإِنْسَانِيِّ فِي فَهْمِ أَعْبَادِ الْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ، وَمَا وَرَاءَ الْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ."^(١٨)

وَلَأَهْمِيَّةِ الْعَقِيدَةِ وَالتَّوَمُّوعِ الْمَرْكَزِيِّ لِلتَّوْحِيدِ شَكَّلَتْ عَمَلِيَّةَ ضَبْطِ تَصَوُّرٍ وَمَعْتَقَدٍ الْإِنْسَانِ وَالْمَجْتَمَعِ عَنِ اللَّهِ وَالْكَوْنِ، وَالْحَيَاةِ، أَوَّلِيَّةَ قَصْوَى عِنْدَ الْمَاتَرِيدِيِّ؛ لِأَنَّهَا تُمَثِّلُ الْأَرْضِيَّةَ الصَّلْبَةَ الَّتِي يُشِيدُ عَلَيْهَا صَرْحَ سَمَوِّ الْمَجْتَمَعِ الْأَخْلَاقِيِّ، وَالرُّوحِيِّ، وَالْفِكْرِيِّ.

ويمكن القول بأنّ عملية ضبط المعتقد عند الماتريدي جاءت في إطار نسق منطقي كلامي محكم انطلق من نظرية المعرفة، حيث يعدّ من أوائل المتكلمين الذين اهتموا بقضية المعرفة وعالجوها معالجة دقيقة، تمخّض عنها بناء نظرية المعرفة وفق نسق منظم، وهو ما يبدو جليا في مقدّمة كتابه "التوحيد"، وأيضا في تفسيره "تأويلات أهل السنة"، حيث تكلم عن مفهومها، ثمّ عرّج على مجموعة من القضايا المستشككة في حقل نظرية المعرفة، منها: هل هناك وجود ذهني للكليات منفكّ عن الوجود الواقعي لها؟، وهل يدرك العقل ماهية الأشياء وحقائقها أم يكفي بظواهرها؟، وما الفرق بين العلم والظن؟، وما هي أقسام المعرفة عنده؟، وهل المعرفة موضوعية أم ذاتية؟، وما منظوره لطرق وأنواع المعرفة وأسماها رتبة وسبيل الوصول إليها؟، وما هي مناهج النظر عنده؟، وما موانع تحصيل المعرفة الصحيحة؟

وبهذا الاستهلال النوعي بعرض وبسط نظرية المعرفة وفق نسق تأسيسي محكم تكون محاولة "الماتريدي" باكورة الجهود الكلامية التي أفردت مبحثا متميزا في نظرية المعرفة وربطته بالمباحث الكلامية.

وعلى أساس هذه النظرية أقام الماتريدي نسقه الكلامي منطلقا من الاستدلال على وجود الله وإثبات وحدانيته وأسمائه وصفاته، وما ينبثق عن هذا الأصل من المباحث الكلامية الأخرى كالنبوات وأفعال العباد والسمعيات.

ولعلّ أبرز ميزة في عرضه لمباحث العقيدة هو سعة أفقها المعرفي المنفتح على عالمي الغيب والشهادة؛ مما ساهم في إثراء العدة الاستدلالية التي وظّفها "الماتريدي" في بناء نسقه الكلامي والتي تنوّعت بين الأدلة السمعية والحسية والعقلية؛ وهذا ما يمكن عزوه إلى حرصه على مراعاة المخاطبين بالدرس العقدي على اختلاف تنوعاتهم الثقافية وتفاوت ملكاتهم الإدراكية، كما نلاحظ تركيزه بالدرجة الأولى على الناحية الحسية التجريبية الواقعية أكثر من التصورات العقلية المجردة.

وبالإضافة إلى أن هذا التنوع الاستدلالي الذي زواج بين الأدلة السمعية والحسية التجريبية والعقلية فإنّ الماتريدي قد أضفى مسحةً من الوضوح والبساطة بعيداً عن تعقيدات أدلة المتكلمين التي تعسّر على الأفهام في كثير من الأحيان، فأتاح له هذا التنوع أن يسلم في كثير من الأحيان من النقد الذي وُجّه إلى بعض أدلة المتكلمين.

وتتجلى هذه السمات في العرض في شواهد كثيرة في مؤلفات الماتريدي، منها ما ورد في سياق استدلاله على حدوث العالم، حيث قال: "الدليل على حدوث الأعيان هو شهادة الوجوه الثلاثة التي ذكرنا من سبل العلم بالأشياء. فأما الخبر فما ثبت عن الله تعالى من وجه يعجز البشر عن دليل مثله لأحد: إنه أخبر أنه خالق كل شيء، وبديع السموات والأرض، وأن له ملك ما فيهن. وقد بينّا لزوم القول بالخبر.

وعلم الحسّ، وهو أنّ كلّ عين من الأعيان يحسّ محاطاً بالضرورة مبنياً بالحاجة، والقِدَم هو شرط الغنى؛ لأنه يستغني بقدمه عن غيره، والضرورة والحاجة يُوجّاهانه إلى غيره، فلزم به حدته... وعلى ذلك طريق **علم الاستدلال - العقل -**، مع أنه لا يخلو الجسم من حركة أو سكون، وليس له الاجتماع، فيزول من جملة أوقاته نصف الحركة ونصف السكون، وكل ذي نصف متناه، على أنهما لا يجتمعان في القِدَم لزم حدث أحد الوجهين، ويبتلانه أن يكون محدثاً في الأزل لزم في الآخر، وفي ذلك حدث ما لا يخلو عنه⁽¹⁹⁾.

كما ركز الماتريدي في عرضه للعقيدة على قوة الحجة والبرهان لتترسخ في الأنفس وتصمد أمام الشبهات، مستلهماً ذلك من المنهج القرآني في عرض العقائد.

قال رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ٣٢﴾ [لقمان، 22]. ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾؛ أي: فقد استمسك بأوثق العرى وأثبتها؛ على ما ذكر في آية أخرى "لَا انْفِصَامَ لَهَا"، أي: فقد استمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ولا انقطاع ولا زوال؛ لأنها ثبتت بالحجج والبراهين، لا بالهوى؛ فكلّ شيء ثبت بالحجة والبرهان - فهو ثابت - أبداً لا زوال له ولا انقطاع، وكل شيء ثبت بالهوى؛ فهو يزول وينقطع عن قريب؛ لزوال الهوى.⁽²⁰⁾

ومنها تفسيره لقوله - عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام، 153] . ويحتمل قوله: "وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا": (الذي دعا إليه الرسل من كل شيء هو صراطي مستقيماً) فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ (لأنَّ الرسل يدعون إلى ما يدعون بالحجج والبراهين ، وقوله - عَزَّ وَجَلَّ: - "وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ". أي أمر-عَزَّ وَجَلَّ- باتباع ما ذكر من الصراط المستقيم، ونهى عن اتباع السبل؛ لأن غيره من الأديان المختلفة والأهواء المتشعبة لا حجة عليها ولا برهان، وما ذكر من الصراط المستقيم هو دين بحجة وبرهان، لا كغيره من الأديان، وإن كان يدعي كلٌّ من ذلك أن الذي هو عليه دين الله وسبيله⁽²¹⁾).

والملفت للانتباه في عرضه لمباحث العقيدة أن سمة تفكيره الكلامي كانت سمة عملية وليست نظرية مجردة. تجلّت هذه السمة، حيث أنه متى استوفى المسألة واستدلّ عليها من وجوه اقتصر على ذلك ولم يوغل ولا استقصى، وهو ما يؤكّد على الجانب العملي في منهج الشيخ.

قال رحمه الله بعد أن استوفى مسألة وصف المولى تعالى بأنه قادر عالم حيّ...: "وهذا باب لو استقصى فيه لشغل عن بلوغ النهاية عن المقصود ونرجو أن يكون فيما أشرنا إليه مقنع لذي اللب والفهم"⁽²²⁾، يفهم من هذه العبارة أن الشيخ ممسكٌ ومنضبط بغرض التصنيف ومقصوده، ولا يريد أن يحدد عنه، ويرى أن الاستقصاء فيه قد يُحيد عنه.

ولا شك أن هذا المنهج في العرض قد حدّد مجال تحرك العقل الإنساني، الذي تميّز بعزوفه عن الدخول في تفاصيل لا طائل منها أو البحث في مشكلات لا حاجة للإنسان فيها في معتقده الديني ولا في حياته العملية.

أي أنّ هذا المنهج يسعى للربط بين الفكر والعمل، عبر استحضار البعد الوظيفي للاعتقادات باستثمارها في الحياة العملية للإنسان ومواجهة تحدياتها، ومن هنا يمكن تبرير عزوف "الماتريدي" عن الدخول في تفاصيل الكثير من المسائل الكلامية؛ لأنه -برأيه- لا حاجة إلى معرفتنا بها⁽²³⁾.

ومن ثمار هذه النزعة العملية والربط بين الفكر والعمل تركيزه على مضامين ومعاني ومقاصد المسائل المتعلقة بالاعتقاد، حيث لم يقف عند حدّ الشكل، بل نفذَ إلى عمق جوهر المعاني بفقه دلالاتها ومقاصدها الأساسية⁽²⁴⁾.

وقد حرص القرآن الكريم، بوصفه المعين الذي نُهل منه الماتريدي في هذا الإطار على تحقيق الثمرة من تفاعل المجتمع مع عقيدته وهو أن تنعكس إيجابياً على المجتمع، دافعة له نحو فضاءات السعي السّني، والحركة الإيجابية، ممّا يحمله على تفعيل كليات الاعتقاد في أرض الواقع، لذا ستركّز جهوده بالخصوص على تنزيل كليات الاستخلاف التي تزاوج بين السموّ الإيماني في مراتب العبودية، والرسوخ الفكري في منظومة التفكير، والترقيّ التعميري في عالم المادة على أساس المعرفة. وهو ما يحيلنا للحديث عن ثمرات التصور العقدي المتمثلة في الفعالية الإيمانية في الحياة.

الفرع الثاني: المقوم الإيماني التزكوي:

من المقاصد الأساسية لترسيخ التصوّر العقدي تعميق بُعد الإيمان في القلوب، عن طريق التحقق بمفرداته الأساسية مثل: العبادة، والتّوكل، والحبّة، والإنابة، والتوبة، والتخلّق بأسمائه الحسنی، وكلّ ما من شأنه أن يوثق الصلة بالله، فتحقّق القلب بالإيمان بالله تعالى "يصوغ كيان الفرد صياغة متميزة، فيجعله ينمو صُعداً في سلّم الخير والإثمار والفعالية".⁽²⁵⁾.

والفضل في ذلك يعود للقرآن الكريم الشافي للأمراض النفسية والروحية التي طالما عانى منها الإنسان، من قلق وحيرة ووساوس، قال تعالى: ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء، 82]، وعلّق الماتريدي: "أي: شفاء للمستشفين في الدنيا، ورحمة لمن تمسك به في الآخرة، فيه شفاء لمن استشفاه في الدنيا، ورحمة في الآخرة لمن تمسك به، وعمى وخسار وظلمة لمن أعرض عنه، ونظر إليه بعين الاستخفاف والاستهزاء والاستثقال، وأمّا مَنْ نظر إليه بعين التعظيم والإجلال فهو له شفاء ورحمة وإن كان القرآن نفسه شفاء ونور، وهكذا في الشاهد أنّ من أبصر شيئاً إنّما يبصر بنور البصر وبنور الهواء بارتفاع ما يستر التورين جميعاً؛ لأنّه إذا كان أعمى البصر لم يبصر شيئاً، وإن كان نور الهواء متجليّاً وكذلك لا يبصر إذا كان نور البصر متجليّاً، بعد أن سترت الظلمة نور الهواء، فإن كان ما ذكرنا أنّه لا يبصر في الشاهد شيئاً إلا

بنورين: نور البصر، ونور الهواء، فالكافر لم يبصر نور القرآن وشفاءه؛ لما سترت الظلمة نور قلبه، والمؤمن أبصر نوره وشفاءه بنور إيمانه، وهكذا الأدوية؛ فإنها لا تجدي نفعاً وإن كانت نافعة شافية في أنفسها إلا بقبول الطبيعة؛ لأنّ الطبع إذا لم يقبلها وإن كانت نافعة شافية - لم تنفع صاحبها، ولم تكن له شفاء، وصارت كأنها في الأصل كانت ضارة غير شافية؛ فعلى ذلك القرآن - وإن كان في نفسه شفاء ونوراً - ضاراً للكافر وعمى وخساراً له، كأن لا شفاء فيه ولا رحمة لما سترت ظلمة الكفر نوره فصار كالزائد رجساً وطغياناً ونفوراً." (26)

وهكذا أبرز "الماتريدي" هذا المقوم وثمراته في سياق تفسيره لمواضع متعددة من آيات القرآن الكريم، منها تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُلِيتْ عَلَيْهِمْ عَائِيَّتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال، 2]، حيث قال: يحتمل قوله: ﴿عَائِيَّتُهُ﴾ حُجَّجَه وبراهينه إذا تليت عليهم يزداد ذلك لهم ثباتاً وقوة على ما كانوا، ... فإنّ المؤمنين يزداد لهم ذلك ثباتاً وقوة . أو ذكر الزيادة؛ لأنّ للإيمان حكم التجدد والحدوث في كلّ وقت وكلّ ساعة، فإذا كان له حكم الحدوث والتجدد فهو زيادة على ما كان، فإن شئت سميتها زيادة وإن شئت سميتها ثباتاً.

كما أبرز في موضع آخر تحقّق المؤمن بمقام التوكّل في سياق تفسيره لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَلَّا رَبَّهُمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، حيث قال: "... على ربهم يتقون ويعتمدون في كلّ أمورهم لا يتوكّلون على غيره إنما يتوكّلون على الله... وأما المؤمن فإنه في جميع أحواله يتوكّل على الله ومنه يخاف، وإن كان يصل ذلك إليه ويجري على يد غيره فهو في الحقيقة من الله." (27)

وجلّى أيضاً في موضع آخر الصفات الجوهرية للمؤمن في سياق تفسيره لقوله عزّ وجلّ: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ" فقال: "... يحتمل قوله: إنما المؤمنون الذين حققوا إيمانهم بما ذكر من الأفعال والثاني: إنما المؤمنون الذين ظهر صدقهم عندكم بما ذكر من الأفعال من وجل القلب والخشية والثبات واليقين على ما كانوا عليه، ليس كالمنافقين الذين كانوا مرتابين." (28)

وعنصر التميّز في تناول الماتريدي لهذا المقوم تأكيده على الجوانب الوظيفية للإيمان؛ وهنا ركّز بالخصوص دوره الفعّال في تمتين العلاقات الاجتماعية.

مَقُومَاتُ بِنَاءِ الْمَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ - قِرَاءَةٌ فِي فِكْرِ الْمَاتَرِيدِيِّ -

يَتَّضِحُ هَذَا فِي سِيَاقِ تَفْسِيرِهِ لِقَوْلِهِ -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة، 71]، حَيْثُ قَالَ: "يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: "بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ" عَلَى الْإِيجَابِ وَالْإِخْبَارِ أَنَّ الدِّينَ الَّذِي اعْتَقَدُوا أَوْ تَمَسَّكُوا بِهِ يَوْجِبُ لَهُمُ الْوَلَايَةَ، وَيَصِيرُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضٍ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران، 103]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات، 10] وَنَحْوِهِ، فَهِيَ أَخُوَّةُ الدِّينِ وَوَلَايَتُهُ. (29)

وَوَلَايَةُ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ بِنَظَرِ الْمَاتَرِيدِيِّ عَلَى نَوْعَيْنِ: وَلَايَةُ رُوحَانِيَّةٍ؛ وَهِيَ وَلَايَةُ الدِّينِ تَوْجِبُ مَرَاعَاةَ حَقُوقٍ وَقَوَامَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمُدَوَّدَةِ وَالْحُبَّةِ، لِذَا يَسْتَوْجِبُ مَرَاعَاتَهَا وَتَعَاهُدهَا بِالذِّينِ الَّذِي هُوَ عِمَادُ وَحِدَةِ جَمَاعَتِهِ، وَمِنْ أُبْرَزِ تَحْلِيلَاتٍ تَحَقِّقُ الْجَمَاعَةَ بِالْحَيَاةِ الرُّوحَانِيَّةِ عِنْدَ الْمَاتَرِيدِيِّ مَا أُنتَجَتْهُ الْجَمَاعَةُ أَوْ الْأُمَّةُ مِنْ عُلُومٍ وَأَدَابٍ. وَهَنَا اعْتَبَرَ الْمَاتَرِيدِيُّ الْحَيَاةَ الرُّوحَانِيَّةَ أَسَاسَ الْحَيَاةِ الْجَسَدَانِيَّةِ، فَهِيَ الرُّوحُ الَّذِي بِهِ يَحْيَا الْجَسَدُ، وَبِذَهَابِهِ يَمُوتُ الْجَسَدُ.

أَمَّا النُّوعُ الثَّانِي: فَهِيَ الْوَلَايَةُ النَّفْسَانِيَّةُ، وَهِيَ الْوَلَايَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ؛ مِنْ نَحْوِ وَلَايَةِ النِّكَاحِ وَالْمِيرَاثِ وَغَيْرِهِ، فَهَذِهِ الْوَلَايَةُ هِيَ الْوَلَايَةُ النَّفْسَانِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ بِالرَّحْمِ وَالنَّسَبِ، فَإِذَا اجْتَمَعُوا فِي دِينٍ وَاحِدٍ وَجَبَتْ تِلْكَ الْوَلَايَةُ لَهُمْ؛ وَهِيَ الْوَلَايَةُ نَفْسَهَا. (30)

وَمِنْ الْأَبْعَادِ الْوُضُفِيَّةِ لِلْإِيمَانِ بِنَظَرِ الْمَاتَرِيدِيِّ حِرْصُ الْجَمَاعَةِ عَلَى تَصْوِيبِ حَرَكِيَّةِ الْفَرْدِ فِي الدَّائِرَتَيْنِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْمَعْتَقَدِ وَالسَّلُوكِ، يَذْكُرُ الْمَاتَرِيدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا مُرُوتَ يَا لَمَعُورَ﴾ [التوبة، 71] يَحْتَمِلُ الْمَعْرُوفُ: الَّذِي تَوَجَّهَ الْعُقُولُ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ لِلَّهِ وَالْإِيمَانُ بِهِ. ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة، 71]؛ أَيُ: يَنْهَوْنَ عَمَّا يَنْكَرُ بِالْعُقُولِ؛ وَهُوَ الشَّرْكُ بِاللَّهِ وَالتَّكْذِيبُ لَهُ. وَهَذَا الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ هُوَ فِيمَا بَيْنَ الْكُفْرَةِ، يَأْمُرُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَيَنْهَوْنَهُمْ عَنْ ضَدِّ ذَلِكَ.

وَإِنْ كَانَ فِيمَا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ أَمْرٌ شَرْعٌ وَنَهْيٌ شَرْعٌ، يَأْمُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِمَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ، وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا لَمْ يَجِئْ بِهِ الشَّرْعُ. أَوْ يَأْمُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِكُلِّ خَيْرٍ وَبِرٍّ، وَيَنْهَى عَنْ كُلِّ شَرٍّ وَمَعْصِيَةٍ. (31)

وعلى هذا الأساس فإنَّ استعادة الباعث الإيماني وتنميته لأجل تفعيله، وترسيخ الروح الإيمانية في المجتمع، يُعدّ أقوى ضمانات تماسكه وتلاحمه، وأمتن أسباب وحدته ومناعته؛ لما له من دور فعال في صهر الشعوب، والقبائل، والأعراق، واللغات، في رحاب المجتمع التوحيدي الواحد على أساس الأخوة الإيمانية، التي تثمر أداءً اجتماعياً نوعياً، يقوم على أساس التعاون، والتناصح والتكافل، لا على التنافس المذموم، والتجاذب، والتنافر، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة، 2].

وبهذا التمثل الفعال يُصبح الإيمان أساس حياة المجتمع الرسالي، وجهته الأساسية التي تسنده في كل مراحل سعيه وحركيته، خاصة في أوقات الابتلاءات والصعوبات القاهرة. تثمر عملية تكوين المجتمع المسلم على أساس عقديّ صحيح، ومنظومة تشريعية محكمة بناءً أخلاقياً شاملاً، تحرّر فيه الإنسان بتمثله لكليات إيمانية تعمق صلته بالله، ممّا أفضى إلى تناغم حركيته مع وسطه الاجتماعي، في كنف قيم أخلاقية وروحية جامعة تجلّت في التكافل، والتعاون على البرّ والتقوى، وتآلف القلوب، وكلّ ما من شأنه أن يرسّخ وحدة الأمة، ويدعم قوّة نسيجها الاجتماعي على أساس الانتساب للإيمان^(*)، ضامناً بذلك صلاحية واستمرارية المجتمع الإسلامي في أداء وظيفته في الحياة في إطار تمثل كليات الاستخلاف، قصد تحقيق أعلى درجات التحضّر في عالمي الروح والمادة.

المقوم الاستدلالي المعرفي:

وظف "الماتريدي" مصطلحات النظر والاستدلال والعقل للدلالة على حركة النشاط العقلي في إقامة البراهين وتركيب القضايا المنطقية.

وقد احتلّ العقل عنده موقعا مفصليا في بناء نظرية المعرفة ونسقه الكلامي، حيث اعتبر منظومة العقل حاكما ضروريا لازما على المعارف التي تكتسب عن طريق الحواس والأخبار، خاصّة في حالات اختلال مدارك الحسّ أو اضطراب في الأخبار ومصادرها، وهنا يأتي الدور الحيوي للعقل في الوصول إلى الحقائق اليقينية في عالم العيان والأخبار⁽³²⁾.

واستند "الماتريدي" في إثبات مصدرية العقل للمعرفة وضرورة النظر إلى القرآن الكريم، مشيراً إلى عدد من الآيات التي تحث الإنسان على التفكير والتدبر في آيات الله في الأنفس والآفاق، حيث رغب الله من خلال هذه الآيات في النظر وألزم الاعتبار وأمر بالتفكير والتدبر، وأخبر أن ذلك يوقف الناس على الحق ويبين لهم الطريق.

وبالإضافة إلى هذه الأدلة المستمدة من القرآن، فإنّ هناك كثيراً من البراهين العقلية التي تشير إلى ضرورة استخدام العقل كوسيلة للمعرفة، وصولاً إلى معرفة الحق سبحانه بالتأمل في آيات الله في الآفاق والأنفس، واكتشاف نوااميس الكون لتسخير الأرض وتعميرها على هداها.

كما يعدّ العقل -بنظره- مرجعاً ومقياساً هاماً في التعرف على حسن الأشياء وقبحها والحكم عليها بعد تحديد الحسن والقبح عن طريق الحسّ والخبر. كلّ هذا يبين من وجهة نظره أهمية العقل والنظر ودوره في معارف الإنسان، بل إنّ من ينكر دور العقل وأهميته يحتاج إلى استخدام العقل نفسه ليثبت رأيه هذا، وهذا في رأي "الماتريدي" أوضح برهان على أهمية العقل⁽³³⁾.

ومن هذا المنطلق دافع الماتريدي عن النظر العقلي ودوره الحوري في الوصول إلى تفسير ظواهر الأشياء، وهذا ما أكّده في سياق ردّه عن القائلين بترك النظر عندما رأى أنه "بالعقل والنظر يُعرف ما استتر بالأشياء من المبادئ والنهايات، وبه تُعرف المضارّ والمنافع... ، وبالنظر في العالم يعلم الإنسان بحدّثه وأن له محدثاً يجزيه بالإحسان ويُعاقبه بالإساءة، فيتجنب ما يسخطه ويقبل على ما يرضيه فيسعد وينال شرف الدارين⁽³⁴⁾".

ويقوم النظر العقلي بنظره على الاستدلال، الذي هو نظر القلب المطلوب علم ما غاب عن الضرورة والحسّ، وأكّد "الماتريدي" هذا المعنى في سياق شرحه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران، 190] قائلاً: "أنّ الآيات إنما احتيج إليها لمعرفة أمور غائبة عن الحواسّ يوصل إليها بالتأمل والبحث عن الوجوه التي جعلت تلك الأشياء المحسوسة التي تغني من له اللب ودخولها تحت الحواسّ عن تكلف العلم بها بالتدبير."⁽³⁵⁾

فهي معرفة عقلية على وجه التفصيل، تندرج تحت المعارف العقلية القائمة على استنتاج نتائج معينة، بناء على ترتيب وقواعد معينة، وتتمّ بطريق العقل، ودرجة اليقين في المعرفة الاستدلالية لا يكون إلا بعد النظر في المقدمات بينما درجة اليقين في المعرفة الضرورية واضحة وثابتة.

وقدّم الماتريدي في كتابيه "التوحيد" و"تأويلات أهل السنة" أدلة كثيرة تنافح عن النظر، وتردّ على القائلين بترك النظر لأنّ في ذلك أماناً من الوقوع في الخطأ. فنجدّه في سياق نقده لمنكري النظر يعرض أدلتهم التي مبناها أنه ليس هناك ضماناً من أنّ النظر العقلي سيؤدّي إلى معرفة حقائق الأشياء كما أنّ الاعتماد على العقل سيكل الإنسان إلى نفسه، ويجعله مسؤولاً عن الوصول إلى معرفة حقائق الأشياء، مع أنّ الأمور كثيراً ما تختلط في العقل فلا يميز الإنسان بين ما هو من عند الله وما هو من عند الشيطان، ومن أجل هذا رأوا أنه من الأسلم للإنسان تجنّب النظر إطلاقاً والاعتماد على الوحي والإلهام.

أكّد "الماتريدي" في معرض ردّه على هؤلاء بأنّ تركهم للنظر سيؤدّي إلى عطب الإنسان وهلاكه، وتعطيل الملكة التي تميزه عن باقي الكائنات، فالإنسان كائنٌ مفكّر دائم السؤال عن كُنه ذاته ومبدئه ومآله وما ينفعه وما يضرّه إلى غير ذلك من الأسئلة الملحة الحاضرة بقوة في حياته، بالإضافة إلى أنّ حياته مُحاطة بكثير من المخاطر والمزالق التي ستقوده إلى الهلاك لا محالة إن انجرّ إليها، لهذا فهو ملزم بالبحث عمّا ينفعه واجتناب ما يؤذيه، وهذا الأمر لا يتحقّق إلا باتّباع مَنْ يوثق به، والعقل هنا ضروريّ لمعرفة مدى صدق مثل هذا الشخص، أو أن يلجأ الإنسان إلى استخدام حكمته وعقله، وإذن لا ملجأ للإنسان في كلا الحالين عن استخدام العقل والنظر⁽³⁶⁾.

ورأى "الماتريدي" أن الشيطان هو الذي يسوّّل للإنسان ترك النظر وعدم استخدام العقل؛ لأنّ استخدامهما سيغلق على الشيطان المنفذ إلى السيطرة على الإنسان، إذ إن الإنسان الذي يشغل نفسه بالتفكير في طبائع الأشياء ومبادئها ونهاياتها سعيًا إلى معرفة خالقها ووجوده سينصرف عن الالتفات إلى الأشياء التي فيها هلاكه والتي يغري بها الشيطان، وهذا بالإضافة إلى أنّ التفكير والنظر إمّا أن يقود الإنسان في النهاية إلى معرفة أنه مخلوق وأنّ له خالقًا يحاسبه ويعاقبه، ومن ثم ينتهي به الفكر إلى اتباع أوامره وتجنّب نواهيه، وينال بذلك السعادة في الدارين، أو أن يقوده النظر

إلى التشبُّث بملذات وشهوات الدنيا وخسارة الدار الآخرة، أو ينتهي به الأمر إلى اكتشاف استحالة الوصول إلى نتيجة فاصلة في هذا الموضوع، وبهذا تتبين في كل الأحوال فائدة النظر والتفكير وأهميته في حياة الإنسان⁽³⁷⁾.

كما ذهب "الماتريدي" إلى أن مسلك الاستدلال هو الطريق الوحيد لمعرفة الله عز وجل، فإذا كان الإنسان عاجزاً عن فهم أوامر الشرع وإدراكها مع استنفاد طاقته من أجل ذلك فهو إذن ليس مخاطباً بها؛ لأنَّ تكاليف الشرع جُعِلت للفهم أولاً ثم العمل، ويخاطب بها ويلزم الإنسان العاقل المدرك. كذلك يذهب إلى أنَّ الإنسان العاقل ملزم بمعرفة الله تعالى، وعن طريق النظر في المخلوقات ينتهي العقل إلى الإيمان بوجود الله تعالى وقدرته. فمعرفة الله إذن تُكتسب بالاستدلال، وما دام الإنسان قد زُوِّدَ بملكات الفكر والتدبُّر وأمر أن يفكر في نفسه وفي ما حوله ومَن حوله، فهو ملزم بالقيام بهذه الوظيفة، وأن يعرف الله عن هذا الطريق⁽³⁸⁾.

يتبين مما سلف مشروعية النظر والفكر عند "الماتريدي"، بإثبات النصوص الشرعية القطعية، والْحُجَجُ العقلية القائمة على البراهين والمنطق والأدلة والاستدلالات العقلية.

نذكر من أوجه عناية الماتريدي بالمقوم الاستدلالي المعرفي الوجهان الآتيان:

أ. الإِعْلَاءُ مِنْ شَأْنِ التَّفَكُّيرِ وَالْحَثُّ عَلَيْهِ:

كان منطلقه في ذلك القرآن الكريم الذي من شأنه التفكُّر، حيث وردت مادّة "فكر" في القرآن الكريم في نحو عشرين موضعاً، ولكنّها بصيغة الفعل، ولم ترد بصيغة الاسم أو المصدر؛ ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدرثر، 18]، وقوله عز وجل: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام، 50]، وقوله جل جلاله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف، 176].

نذكر من الشواهد في الإشارة إلى هذا العنصر تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت، 20].

قال رحمه الله "كان الأمر بالسير في الأرض والنظر ليس هو سيرًا بالأقدام فيها، ولكن أمر بإرسال الفكر فيها من الخلاق، والنظر في بدء ما فيها من الخلق متقنًا محكمًا بالتدبير والعلم والحكمة بلا أسباب؛ ليعلموا أن المدبر في ابتداء الإنشاء والإعادة بالخارج عن احتمال وسعهم وقوامهم - خطأ، وأنه الذي قدر على إنشاء الخلق وابتدائه بلا سبب ولا شيء، وإن لم يحتمل وسعهم وبنيتهم وقواهم⁽³⁹⁾. ذلك؛ فعلى ذلك الإعادة والنشأة الأخرى، وإن كانت خارجة عن احتمال وسعهم وقواهم - قادر عليها⁽⁴⁰⁾.

ب- تدريب العقل على مهارات القياس:

عُرف عن الماتريدي بتوظيف منهج قائم على الاعتراف بالواقع المحسوس والارتقاء منه إلى الحقائق غير المحسوسة، وهو ما يتجلى في سياق استدلاله على وجود الله من خلال النظر في أحوال العالم المشاهد وتأملها، فلا يوجد في الشاهد ما يجتمع بنفسه ويفترق، وتتقلب أجزاؤه من حال إلى حال، وفي ذلك دلالة على أن تدبيره بيد غيره، إذ ما من شيء يحسّ أو يسمع ودلالة حدثه ظاهرة، من جهله بابتداء حاله وبإصلاح ما يفسد، أو ينشئ مثله، وعجزه عما به حفظ نفسه أو تقليبه عن جوهره، مع ما فيه من الخبيث والقبيح والدليل والمهان الذي لولا تدبير غيره ما احتمل أن يكون كذلك⁽⁴¹⁾.

كما استشهد "الماتريدي" بأمثلة في مواطن كثيرة من كتابه "تأويلات أهل السنة" تنطلق من المحسوس للاستدلال على الالمحسوس، تدريباً للعقل على استعمال القياس، نذكر منها دلالاته على حسن الإيمان انطلاقاً من مثال محسوس، قال رحمه الله في سياق تفسيره لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَكَوْا كُفْرَهُمْ وَآمَنُوا بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ﴾ [البقرة: 165] "وَيُضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۝ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۝" [إبراهيم: 24-27] "ويشبه أن يكون ضرب المثل لغير هذا المعنى؛ وهو أنه ذكر جواهر طيبة وجواهر خبيثة؛ مما تقع عليها الحواس ويقع عليها البصر؛ ليكون كلّ جوهر من هذه الجواهر التي تقع عليها الحواس ويقع

عليها البصر - من حيث أو طيب - دليلاً وشاهداً على ما غاب عن الخلق؛ ولا تقع عليها الحواس. وهكذا جعل الله تعالى هذه المحسوسات والأشياء الظاهرة - دليلاً وشاهداً لما غاب عنهم؛ ولا يقع عليه الحس، تدرك بالعقول التي تركب فيهم؛ ليرغب الطيب؛ مما يقع عليه الحس والبصر؛ على الموعد الغائب، ويحذر الخبيث المحسوس عما غاب وأوعد، وكذلك هذه الآلام والأمراض والشدائد التي جعل في هذه الدنيا؛ لتزجرهم عن الأفعال التي بها يستوجبون مثلها في الآخرة، وكذلك النعم التي في الدنيا واللذات، جعلها لتدلهم على النعم الدائمة. وعلى هذا يجوز أن يخرج لا أنه أراد بالشجرة الطيبة الشجرة نفسها أو بالشجرة الخبيثة الشجرة نفسها ولكن ما وصفنا. والله أعلم بذلك.⁽⁴²⁾

الفرع الرابع: المقوم السنني الحركي:

تضمّن القرآن الكريم توجيهات تبعث الوعي بالسنن في الفرد والمجتمع، حيث حثّ على التعمّق في فهم واستيعاب السنن، عبر النظر إلى آيات الله في عالم الأنفس والآفاق نظرة الكاشف لقوانينها، المحيط بأبعادها وآثارها، بهدف تسخيرها وتعمير الأرض على هداها في إطار تفعيل القواعد الكلية للاستخلاف في الأرض؛ ممّا يثمر مجتمعا فاعلا، متكيّفاً مع واقعه، ومنضبطاً بالنواميس الشرعية الكونية، ومتناغماً مع غاياته ومقاصده.

وفي هذا الإطار وصف "عماد الدين خليل" القرآن الكريم بأنه: "قدّم ... أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، ينتقل من مجرد العرض والتجميع، إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية."⁽⁴³⁾

نذكر من إشارات الماتريدي في هذا الشأن استمدادا من القرآن الكريم ما يأتي:

أ- السير في الأرض للتفكر في أحوال الأقوام السابقين:

قرّر القرآن الكريم أن التاريخ البشري يخضع إلى سنن ثابتة، فهو: "لا يتحرك من فوضى وعلى غير هدف، وإنّما تحكمه سنن ونواميس كتلك التي تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء... سواءً بسواء...، وإنّ الوقائع التاريخية لا تخلق بالصدفة، وإنّما من خلال شروط خاصة تمنحها هذه الصفة

أو تلك، وتوجهها صوب هذا المصير أو ذاك...⁽⁴⁴⁾، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝﴾ [الفتح، 23].

أي قدر الله أن تمضي هذه النواميس في طريقها لا تتبدل ولا تتحول، لتحقيق حكمته في الخلق والتكوين. ولهذا أوجب على الأمة أفرادا ومجتمعات النظر والتدبر والتفكر في أحوال الأمم الغابرة، واستخلاص العبر من مآلها.

إنه تتبع لأحوال الأقوام؛ رصداً لمواقف وأسباب ونتائج، تتكرر مُشْكَلَةٌ سُنَّةٌ مُطَرِدَةٌ، ووقوفاً على العامل الحقيقي في تكرر السُنَّة، ثم بعد ذلك يتوعد القرآن الكفار بأن السُنَّة لن تتأخر، ما دامت أسبابها متوقّرة.

قال الماتريدي في تفسيره لقوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۝﴾ [الحج، 46] هلاً ساروا في الأرض، فتكون لهم قلوب يعقلون بها فينظروا؛ ليعرفوا ما حلّ بأوليئكَ بالكذب؛ فيمتنعون عنه،) أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا (أي: يسيروا فيستمعوا إلى الأخبار التي فيها ذكر هلاكهم، وما نزل بهم بالكذب والعناد؛ لأنّ ما حلّ بالأولين إنما يُعرف ذلك بأحد أمرين: إمّا بالمعينة بالنظر إليهم، وإمّا بالسمع من الأخبار⁽⁴⁵⁾.

وفي قوله عزّ وجلّ: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ (يحتمل في المكذّبين بالرسل والمصدّقين) فَيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ (يحتمل: لو سرتهم فيها لرأيتم آثارهم، ولعرفتم بذلك ما إليه ترجع عواقب الفريقين، ويحتمل: الأمر بالتأمل في آثارهم، والنظر في الأنباء عنهم؛ ليكون لهم به العبر، وعما هم عليه مزدجر.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ۝﴾ [الأنعام، 11] "ليس على الأمر بالسير في الأرض، ولكن على الاعتبار والتفكر فيما نزل بأوليئكَ بتكذيبهم الرسل؛ لأنه - عزّ وجلّ - أراهم آيات عقلية وسمعية، فلم ينفعهم ذلك، فأراد أن يُريهم آيات حسّية ليمنعهم ذلك عن التكذيب والعناد.⁽⁴⁶⁾

كما فسّر قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٦٩) ﴿النمل، 69﴾...؛ حيث قال: "فيكون قوله: (سِيرُوا فِي الْأَرْضِ) ليس على حقيقة الأمر بالسير، ولكن على ما ذكرنا، أي: لو سرتُم لعرفتُم ما حلَّ بهم بتكذيبهم، أو أن يكون الأمرُ بالسير في الأرض أمراً بالتفكّر فيما نزل بأولئك، الأمر بالنظر في عاقبة أمرهم أمرٌ بالاعتبار فيهم، وفي أمر أولئك أمرٌ بهذا؛ ليزجرهم ذلك عن مثل صنيعهم وفعلهم." (47)

ب- سنة التدافع: وهي سُنَّةٌ مطّردة في الحياة البشرية (48)، وتعني "تسابق وتزاحم وتغالّب دائب بين الرّغبات والإرادات، وبين الحاجات والتّحدّيات، وبين الأفراد والجماعات، وبين الثقافات والحضارات." (49)

أما التدافع بين الأفراد فيكون دائماً بين أصحاب الحقّ وأصحاب الباطل أي بين المؤمنين وغيرهم، فيحصل التعارض والتزاحم والتدافع، وذلك لأن تطبيق أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر وطرده ودفعه وإزالته، أو على الأقلّ إضعافه ومنعه من أن يكون له تأثيرٌ في واقع الحياة، وقد "قضت إرادُهُ الله تعالى أن تحكّم هذه السُنَّة الاجتماعية حركة الاستخلاف البشري "بناءً على حضوره في ساحة التدافع، كما نَبّهت على ذلك القاعدة القرآنية. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة، 251) . وقضت سنة الله في تدافع الحق والباطل أنّ الغلبة للحقّ وأهله، وأنّ الاندحار والسّحق للباطل وأهله، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء، 18) وهذا من تمام عدل الله سبحانه وتعالى.

ويذكر الماتريدي في تفسير قوله عز وجل: "وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ" اختلاف فيه: قَالَ بَعْضُهُمْ: دفع بالكفار بعضهم ببعض شرّهم عن المسلمين، لما شغل بعضهم ببعض، وجعل بعضهم لبعض أعداء إلى أن لم يتفرّغوا عن أنفسهم للمسلمين، وإلا كفساد الأرض (50).

الخاتمة:

نخلص من خلال العرض التفصيلي السابق إلى النتائج الآتية:

1- شدّد الماتريدي على الدور المفصلي للدين في وحدة المجتمع، ولزومه في حياة البشر، حيث رأى أنه لا بدّ للخلق من دين يلزمهم الاجتماع عليه وأصل يلزمهم الفرع إليه، ودلّل على ضرورته للمجتمع بالدليل السمعي والعقلي.

2- شكّل الدين بنظر الماتريدي منذ دخوله ميدان التأثير في المجتمع الجاهلي مقوماً أساسياً، ومرتكزاً متيناً لوحدة المجتمع وقوة تمكينه، فأحدث نقلات نوعية في المجتمعات التي حلّ بها، مقياس جديدة محلّ العادات البائدة التي كانت سائدة في الجاهلية على أسس معنوية سامية تمثّلت في التقوى والفضيلة والإحساء الإنساني، والمساواة بين الناس في حقّ الحياة وحقّ الكرامة. كما نقل الأفراد من حالة التناقض والصراع إلى حالة التآلف والتعاون والتلاحم، فشكّلوا أمة واحدة، تبنّت منزلة رفيعة بين الأمم الأخرى، بعد أن كانوا مجرد قبائل وجماعات متفرقة ومتناحرة، لا قيمة لها.

3- تجلّى منظور الماتريدي لبناء المجتمع في مجموعة من المقومات المتكاملة، بداية بالمقومات التأسيسية المتمثلة في:

المقوم العقدي التصوري، والمقوم الإيماني التركوي، والمقوم الاستدلالي المعرفي.

ثم يأتي: المقوم السنّي الحركي الذي يأخذ على عاتقه تنزيل الأبعاد العقدية والأخلاقية والتشريعية في أرض الواقع، وفق فقه عميق بسنن التمكين والريادة.

4- تمثل عنصر التميّز في منظور الماتريدي للدين تركيزه على بعده الوظيفي؛ عبر كشف تجلياته في الحياة ودوره المركزي في تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع، وترسيخ وحدته العضوية.

- [1]: الفيروز آبادي ، القاموس المحيط، مادة (ج.م.ع) (بيروت: دار الرسالة، ط8، 1426هـ-2005م، ص1399.
- [2]: مجمع اللغة العربية، أحمد الزيات بالاشتراك، المعجم الوسيط ، مادة (ج.م.ع) (القاهرة: دار الدعوة، 2010م)، ص 136.
- [3]: علي عبد الواحد وافي، علم الاجتماع، نخضة مصر للطباعة و النشر والتوزيع، ص16.
- [4]: أبو عجوة، محمد نجيب، المجتمع الإسلامي دعائمه وآدابه في ضوء القرآن، القاهرة، مكتبة مدبولي، 2000 م، ص 16.
- [5]: المرجع السابق، ص 17.
- [6]: انظر: علي عبد الواحد وافي، علم الاجتماع، مرجع سابق، ص18.
- [7]: انظر: الماتريدي، تأويلات القرآن (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1426هـ-2005م)، ج374/7.
- [8]: انظر: المصدر السابق، ج374/7.
- [9]: المصدر السابق، ج444/2. ج445/2.
- [10]: أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وصححه الحاكم والترمذي.
- [11]: رواه معاذ بن جبل ، نقله الهيثمي في مجمع الزوائد وحكم عنه بأنه : رجال أحمد ثقات إلا أن العلاء بن زياد قيل إنه لم يسمع من معاذ
- [12]: الماتريدي، تأويلات أهل السنة، ج318/5-319.
- [13]: الماتريدي، التوحيد تح: فتح الله خليف (بيروت: دار المشرق، ط2، 1970م)، ص4-5.
- [14]: المصدر السابق، ص5.
- [15]: المصدر السابق، ص186.
- [16]: انظر: المصدر السابق، ص179-180.
- {*}: ركزنا على التوحيد في هذا السياق؛ لأنه يمثل حجر الزاوية في منظومة الاعتقاد، وبالتالي تستمد الكليات الاعتقادية الأخرى وجودها من التوحيد، وعلى هذا الأساس فإن الحديث عن التوحيد يتضمن الأصول الاعتقادية الأخرى.
- [17]: اسماعيل راجي الفاروقي، إسلامية المعرفة-المبادئ العامة، خطة العمل، الإنجازات- المعهد العالمي للفكر الإسلامي (بيروت: دار الهادي، 1421هـ-2001م)، ص91.
- [18]: عبد الحميد أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية-المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني-، طبعة إلكترونية 1429/08/08هـ - 2008/08/09م، ص100.
- [19]: المصدر السابق، ص12.
- [20]: الماتريدي، تأويلات أهل السنة، مصدر سابق، ج312/8-313.
- [21]: المصدر السابق، ج318/4.
- [22]: الماتريدي، التوحيد، مصدر سابق، ص55.
- [23]: انظر: مصطفى الزفتاوي، مناهج التصنيف في الفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص474.

- [24]: انظر تفسيره لقوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (26) يُبَيِّنُ اللَّهُ لَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (27)، تأويلات أهل السنة، مج 6، ص 388.
- [25]: عبد المجيد عمر النجار، الإيمان بالله و أثره في الحياة ، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997م)، ص 196.
- [26]: الماتريدي، تأويلات أهل السنة، مصدر سابق، ج 102/7.
- [27]: انظر: المصدر السابق، ج 154/5-155 بتصرف.
- [28]: المصدر السابق، ج 152/5.
- [29]: المصدر السابق، ج 426/5.
- [30]: المصدر السابق، ج 427-426/5.
- [31]: المصدر السابق، ج 427/5.
- {*}: وصف النبي صلى الله عليه وسلم قوة رابطة المجتمع المسلم بأبلغ صورة ومثال عندما قال: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَى"، رواه البخاري في صحيحه برقم: (6011)، ورواه مسلم في صحيحه، برقم: (2586)، واللفظ له، وكلاهما عن التَّعَمَّانِ بْنِ بَشِيرٍ.
- [32]: انظر: الماتريدي، كتاب التوحيد، مصدر سابق، ص 19، وما بعدها.
- [33]: انظر: المصدر السابق، ص 10-11.
- [34]: انظر: المصدر السابق، ص 136.
- [35]: الماتريدي، تأويلات أهل السنة، مصدر سابق، ج 2، ص 560.
- [36]: انظر: الماتريدي، كتاب التوحيد، مصدر سابق، ص 135-136.
- [37]: انظر: المصدر السابق، ص 136.
- [2]: المصدر السابق، ص 137، وانظر: محمد أحمد جلي، نظرية المعرفة عند الإمام الماتريدي، ص 37-38، Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 17:2 (1982).
- [38]: الماتريدي، تأويلات أهل السنة، مصدر سابق، ج 216/8.
- [39]: المصدر السابق، ج 217/8.
- [40]: انظر: الماتريدي، كتاب التوحيد، مصدر سابق، ص 15.
- [41]: الماتريدي، تأويلات أهل السنة، مصدر سابق، ج 6، ص 388.
- [42]: خليل، عماد الدين، التفسير الإسلامي للتاريخ (بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1983م)، ص 8.
- [43]: عماد الدين خليل، حول تشكيل العقل المسلم، الكتاب رقم 4 (الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، رمضان 1403هـ)، ص 51.
- [44]: الماتريدي، تأويلات أهل السنة، مصدر سابق، ج 428/7.
- [45]: المصدر السابق، ج 29/4.

[46]: المصدر السابق، ج8/131.

[47]: انظر: الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية (الجزائر: دار قرطبة، ط1، 1425هـ-2004م)، ص 74.

[48]: بوقفة رؤوف، نظرية التدافع والتجديد عند طيب برغوث، موقع: www.alfikr.com/cat

legories.php?id=3. 2014-6-12.

[49]: الطيب برغوث، الفعالية الحضارية و الثقافة السننية، مرجع سابق ، ص 74.

[50]: الماتريدي، تأويلات أهل السنة، مصدر سابق، ج230/2

قائمة المراجع:

القرآن الكريم

كتب السنة : الصحيحان والكتب الستة

- 01- إبراهيم مذكور، في الفلسفة الإسلامية؛ منهج وتطبيقه، جزآن، دار المعارف، 1967م.
- 02- أبو عجوة، محمد نجيب، المجتمع الإسلامي دعائمه وآدابه في ضوء القرآن، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000 م.
- 03- أحمد محمود صبحي، في علم الكلام ودراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1978م.
- 04- إسماعيل راجي الفاروقي، إسلامية المعرفة - المبادئ العامة، خطة العمل، الإنجازات - المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الهادي، بيروت، 1421هـ-2001م.
- 05- ألبير نصري نادر، أهم الفرق السياسية والكلامية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، (د.ت.).
- 06- التفتازاني أبو الوفا، الإنسان والكون في الإسلام، دار الثقافة للطباعة والنشر، الفجالة، 1975م.
- 07- حسام محي الدين الألوسي، حوار بين الفلاسفة والمتكلمين، مطبعة الزهراء، بغداد، 1967م.
- 08- خليل، عماد الدين، التفسير الإسلامي للتاريخ ، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1983م.
- 09- الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية ، دار قرطبة، الجزائر، ط1، 1425هـ-2004 م .
- 10- عبد الحميد أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية - المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني-، طبعة إلكترونية 1429/08/08هـ - 2008/08/09م.
- 11- عبد القادر محمود، الفكر الإسلامي والفلسفة المعارضة في القدام والحديث، قسم التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، ط 1، 1971م.
- 12- عبد المجيد عمر النجار، الإيمان بالله و أثره في الحياة ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م.
- 13- علي عبد الواحد وافي، علم الاجتماع، نخبة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت.).
- 14- علي عبد الفتاح المغربي، إمام أهل السنة والجماعة أبو منصور الماتريدي وآراؤه الكلامية، مكتبة وهبة، ط2، 2009م.

- 15- عماد الدين خليل، حول تشكيل العقل المسلم، الكتاب رقم 4، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، الدوحة، رمضان 1403هـ
- 16- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة (ج.م.ع)، دار الرسالة، بيروت، ط8، 1426هـ-2005م
- 17- الماتريدي، أبو منصور، تأويلات القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1426هـ-2005م.
- 18- الماتريدي، أبو منصور. التوحيد تح: فتح الله خليف، دار المشرق، بيروت، ط2، 1970م.
- 19- مجمع اللغة العربية، أحمد الزيات بالاشتراك، المعجم الوسيط، مادة (ج.م.ع)، دار الدعوة، القاهرة، 2010م.
- 20- محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، دون تاريخ نشر.
- 21- محمد أحمد جلي، نظرية المعرفة عند الإمام الماتريدي، (Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad)، 1982).
- 22- محمد عاطف العراقي، تحديد في المذاهب الفلسفية والكلامية، دار المعارف، ط3، 1976م.
- 23- محمد عاطف العراقي، ثورة العقل في الفلسفة العربية، دار المعارف، ط2، 1979م.
- 24- مصطفى الزفناوي، مناهج التصنيف في الفلسفة الإسلامية، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، قسم الفلسفة الإسلامية.
- 25- يحي هويدي، دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1972م.

المقالات:

- 26- بوقفة رؤوف، نظرية التدافع والتحديد عند طيب برغوث، موقع: www.alfikr.com/cat.egories.php?id=3، 2014-6-12.